. . : : بسم الله الرحمن الرحيم : : . .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمابعد:

فهذه دراسة مختصرة لكتاب : (الرد على الجهمية) لأبي سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، قسّمتها إلى : تمهيد ومبحثين وخاتمة، كمايلي:

تمهيد : نبذة عن الإمام عثمان بن سعيد الدارمي

اسمه ونسبه: هو عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي، نزيل هراة[١] ، ومحدّثها، يكنى بأبي سعيد، ويلقّب بالحافظ والإمام،ينسب إلى تميم وإلى سجستان،وإلى دارم بن مالك فيقال: دارمي، ولد قبل المائتين بيسير، ــ كما رجح ذلك الذهبي ــ، أحد الحفّاظ الأعلام،طاف الآفاق في طلب الحديث، وصنف المسند الكبير ، سمع خلقاً كثيراً بالحرمين والشام ومصر والعراق والجزيرة وبلاد العجم[٢] .

كان معروفاً بقوة حجته العقلية، وقد ظهر لي ذلك جلياً من خلال دراسة هذا الكتاب العظيم، وقد نقل عنه شيخ الإسلام في أكثر من موضع من مؤلفاته، وكذا تلميذه ابن القيم.

أبرز مشايخه: الإمام أحمد بن حنبل، و علي بن المديني[٣] ، يحيى بن معين[٤] .

أبرز تلاميذه: ابن خزيمة[٥] ،وأبو العباس السجزي[٦] ، وأبو عمرو الحيري[٧] .

أهم مؤلفاته:

١. المسند الكبير.
٢. النقض على بشر المريسي.
٣. الرد على الجهمية.
٤. سؤالات في الرجال ليحيى بن معين.

وفاته: توفي ــ رحمه الله ــ في شهر ذي الحجة، سنة (٢٨٠)، وقد ناهز الثمانين من عمره[٨] ، وكانت وفاته بهراة[٩] .

قال الذهبي: وما رواه أبو عبد الله الظبي عن شيوخه، أنه مات سنة اثنين وثمانين ومائتين، فوهم ظاهر[١٠] .

المبحث الأول : نبذة عن كتاب الرد على الجهمية[١١]

يقع كتابه هذا في نحو (١٨٥) صفحة من النسخ المحققة، كما في تحقيق الشيخ : بدرالبدر، وقد ألّف الدارمي ــ رحمه الله ــ كتابه في الرد على الجهميّة في نفيهم للصفات، اعتمد فيه على النصوص الشرعية وأقوال السلف و ما أُثر عنهم،بالإضافة إلى الردود العقلية المستنبطة من النصوص الشرعية.

وقد جعل كتابه على أبواب،يأتي ذكرها في عرض الكتاب ــ بإذن الله ــ.

طبعات الكتاب : طبع الكتاب عدة طبعات كما يلي :

١. نَشَرَ هذا الكتاب جوستاف تستام في ليدن (١٩٦٠).

---

(١) هراة : بالفتح، مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان ، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، محشوة بالعلماء وأهل الفضل والثراء، جاءها الكفار من التتر فخربوها ، وذلك في سنة (٦٨١). معجم البلدان، ياقوت الحموي: (٣٩٦/٥).

(٢) سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي: (١٣/ ٣٢٠).

(٣) أبو الحسن علي بن عبدالله بن جعفر بن نجيح السعدي، كان علماً في معرفة الحديث والعلل، توفي سنة (٢٣٤)، سير أعلام النبلاء : (١١/ ٤١-٦٠).

* لترجمته ، انظر : سير أعلام النبلاء : (١٣/ ٣١٩- ٣٢٦)، طبقات الحفاظ : (٢٩٦)، شذرات الذهب : (٢/ ١٧٦)، الأعلام : (٤/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٤) يحيى بن معين بن عون، وقيل : غياث بن زياد، أبو زكريا الغطفاني، توفي سنة (٢٣٣). الفهرست، لابن النديم : (١/ ٢٢٢).

(٥) أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة النيسابوري، توفي سنة (٣١١). سير أعلام النبلاء : (١٤/٣٦٥-٣٨٢).

(٦) أحمد بن محمد بن الأزهر السجزي، توفي سنة (٣١٢). سير أعلام النبلاء: (١٤/٢٩٦).

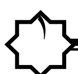
(٧) أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن مسلم النيسابوري الحيري، توفي سنة (٣١٧). سير أعلام النبلاء : (١٤/٤٩٢-٤٩٣).

(٨) شذرات الذهب، عبدالحي العكري: (٢/ ١٧٦).

(٩) الأعلام، الزركلي : (٤/ ٢٠٦).

(١٠) سير أعلام النبلاء: (١٣/ ٣٢٥ــ ٣٢٦).

(١١) الجهمية : أتباع جهم بن صفوان، الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وزعم ــ أيضا ــ أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط، وقال: لافعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز، كما يقال: زالت الشمس ودارت الرحى من غير أن يكونا فاعلين أو مستطيعين لما وصفتا به، وزعم ــ أيضاً ــ أن علم الله تعالى حادث، وامتنع من وصف الله تعالى بأنه شيء أو حي أو عالم أو مريد، وقال بحدوث كلام الله تعالى ــ كما قالته القدرية ــ ولم يسم الله تعالى متكلماً به، قتله مسلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية. (الملل والنحل، الشهرستاني : ٨٦/١ ، الفرق بين الفرق، البغدادي: ١٩٩/١).



٢. وعن هذه الطبعة، طبعته منشأة المعارف المصرية (١٩٧١)،ضمن مجموعة عقائد السلف،بتقديم : عمار جمعي.
٣. وعنها المكتب الإسلامي (١٩٨٢)، ت: زهيرالشاويش، وتخريج الإمام : محمد ناصر الدين الألباني.
٤. وعنها الدار السلفية بالكويت (١٤٠٥)، ت: بدر البدر(١) .

سبب التأليف : ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ سبب تأليفه لهذا الكتاب، وهو أنه لما رأى أهل البدع بدأوا في الظهور والانتشار في أنحاء متفرقة من بلاد الإسلام، ونالوا من أسماء الله وصفاته مانالوه؛ من نفي صريح وتعطيل، ألّف هذه الرسالة، يقول في ذلك: (فحين رأينا ذلك منهم، وفطنّا لمذهبهم، ومايقصدون إليه من الكفر وإبطال الكتب والرسل، ونفي الكلام والعلم والأمر عن الله تعالى، رأينا أن نبين من مذهبهم رسوماً من الكتاب والسنة وكلام العلماء، مايستدل به أهل الغفلة من الناس على سوء مذهبهم، فيحذروهم على أنفسهم وعلى أولادهم وأهليهم، ويجتهدوا في الرد عليهم، محتسبين منافحين عن دين الله تعالى، طالبين به ماعند الله)(٢) .

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال واقعي، وهو: لماذا خاض الإمام عثمان بن سعيد في الجدل مع أهل البدع والكلام، مع أن السلف كانوا يحذرون من ذلك؟

ولعلنا ننقل هنا إجابته ـ رحمه الله ـ حيث قال: (وقد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا وماأشبهه، وقد كانوا رزقوا العافية منهم، وابتلينا بهم عند دروس الإسلام، وذهاب العلماء فلم نجد بداً من أن نرد ما أتوا به من الباطل بالحق، وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتخوف ماأشبه هذا على أمته، ويحذرها إياهم، ثم الصحابة بعده والتابعون، مخافة أن يتكلموا في الله وفي القرآن بأهوائهم فيضلوا، ويتماروا به على جهل فيكفروا، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قال: (المراء في القرآن كفر)(٣)، وحتى إن بعضهم كانوا يتقون تفسيره، لأن القائل فيه إنما يقول على الله)(٤) .

وكتابه هذا من أعظم الكتب نفعاً، وفي ذلك يقول ابن القيم : (وكتاباه(٥) من أجل الكتب المصنفة في السنة وأنفعها، وينبغي لكل طالب سنة مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة أن يقرأ كتابيه، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يوصي بهذين الكتابين أشد الوصية، ويعظمهما جدا، وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما)(٦) .

المبحث الثاني : عرض الكتاب

ابتدأ كتابه بحمد الله ووصفه بصفاته الحسنى، وفي ذلك ردٌ على الجهمية النفاة، ثم ذكر بداية الإسلام ودعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمته، ودخول الناس عجمهم وعربهم فيها، وعدم ظهور شيء من البدع في ذلك الزمان، حتى خرج الجعد(٧)بالبصرة وجهم(٨) بخراسان.

ثم بدأ بسرد ما ورد في عدم الخوض في كلام الله وسنة رسوله بالجهل، ونقل عن أبي بكر الصديق في ذلك أثراً(٩) ، ثم أخذ في سرد الوساوس التي تأتي العبد من الشيطان، كالسؤال عن ذات الله وكيفيتها، وكيف خلق المخلوقات(١٠) ،ثم بيّن ـ رحمه الله ـ أنه لم ولن يستطرد في نقل كلام المعطلة ودعواهم، وذلك للمصلحة العامة، مخافة بث الشكوك في قلوب الناس، وعزز رأيه هذا بقول ابن المبارك(١١): (لأن أحكي كلام اليهود والنصارى أحب إليّ من أن أحكي كلام الجهمية)(١٢) .

باب الإيمان بالعرش

(١) وهي أجود طبعة ـ في نظري ـ ، لدقتها في المقابلة ، وتخريج الأحاديث والآثار، ولذا اعتمدتها في دراستي.
(٢) (١٨).
(٣) رواه أبو داود: (٤٦٠٣).
(٤) (١٨ـ ١٩).
(٥) يعني : (الرد على الجهميّة) و(النقض على بشر المريسي).
(٦) اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم : (١/١٤٣).
(٧) الجعد بن درهم، عداده في التابعين، مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، سير أعلام النبلاء : (٥ / ٤٣٣).
(٨) الجهم بن صفوان السمرقندي ، أبو محرز ، قال بالجبر وأن الإيمان هو المعرفة فقط، وأثر على عامة الفرق الكلامية. الأعلام : (٢/١٤١).
(٩) (١٩).
(١٠) (٢١ـ ٢٤).
(١١) أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك الحنظلي المروزي ، توفي سنة (١٨١)، سير أعلام النبلاء : (٨ / ٣٧٨- ٤٢١).
(١٢) السنة لعبد الله بن أحمد: (٨، ٣٥).

بعد ذلك بدأ في سرد مانفته الجهميّة المعطّلة، وذكر أول ماذكر: العرش، فقال: (باب الإيمان بالعرش)[١] .

.

ثم أخذ بسرد ماورد في إثباته، مستدلاً بآي الكتاب، كقوله تعالى: {الرحمن على العرش استوى}[٢] ، وقوله تعالى: {ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً} [٣].

وأنكر طريقة إيمانهم المجرّدة عن وصف الله بما ثبت له ــ سبحانه ــ، من استواءه على عرشه على مايليق به ــ سبحانه ــ.

وردّ على من ادعى أن العرش هو السماوات والأرض ومافيهن، وناقشهم في ذلك مستدلاً بالكتاب والسنة[٤] .

ثم واصل سرد الأدلة الدالة على ثبوت العرش[٥] ، ثم قال في نهاية هذا الباب: (ففي ماذكرنا من كتاب الله الله ــ عزوجل ــ، وفي هذه الأحاديث بيانٌ بيِّنٌ أن العرش كان مخلوقاً قبل ما سواه من الخلق، وأن ما ادعى فيه هؤلاء المعطلة، تكذيب بالعرش، وتخرّص بالباطل)[٦] .

باب استواء الرب[٧] ــ سبحانه ــ على العرش وارتفاعه إلى السماء وبينونته من خلقه

وبعد أن أثبت العرش انتقل إلى صفة من صفات الله، لها تعلق بالعرش، وهي: (استواء الله ــ تبارك وتعالى ــ على عرشه)[٨] ، وذكر مايلزم من هذه الصفة، وهو العلو للعلي العزيز ــ سبحانه وتعالى ــ.

فذكر أن مما أنكره الجهمية صفة الاستواء والعلو لله، ثم ساق الأدلة على إثبات ذلك من كتاب الله، كقوله تعالى: {إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش }[٩].

وقوله تعالى: {وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير }[١٠]،وقوله تعالى: {يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون} [١١].

ثم ذكر دعوى القوم؛ بأنهم أقروا بهذه الآيات بألسنتهم، ونقضوا دعواهم بدعوى غيرها، فقالوا: (الله في كل مكان، لا يخلو منه مكان)، وأن الاستواء هو الاستيلاء[١٢] .

فردّ عليهم ـ رحمه الله ــ برد عقلي مفحم بقوله: (فهل من مكان لم يستولِ عليه ولم يعله، حتى خصّ العرش من بين الأمكنة بالاستواء عليه، وكرر ذكره في مواضع كثيرة من كتابه؟ فأي معنى إذاً لخصوص العرش، إذا كان عندكم مستوياً على جميع الأشياء كاستوائه على العرش ــ تبارك وتعالى ــ؟)[١٣] .

ثم ردّ مقولتهم: (هو في كل مكان)، وبين بطلانها[١٤]، وردّ عليهم مااستدلوا به من قوله تعالى: {مايكون من نجوى ....ــ إلى قوله تعالى ــ إلا هو معهم أينما كانوا، ثم ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة}[١٥]، وأنها دليل عليهم لا لهم، في إثبات صفة العلم لله من فوق عرشه كما دلّ على ذلك أول الآية وآخرها[١٦] .

واستدل لذلك ــ أيضاً ــ بما ورد عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه والتابعين، وإجماع الناس؛ العالم منهم والجاهل؛ أن كل أحد إذا سأل الله أو دعاه أو استغاثة رفع بصره إلى السماء[١٧] .

ثم أخذ في سياق ماورد من إثبات علو الله واستواءه على عرشه[١] ، واستدل بحديث الجارية[٢] على أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ جعل أمارة الإيمان: معرفتها أن الله في السماء[٣] ، ثم استدل بدليل عقلي قوي ــ ــ أعجبني كثيراً ــ وهو قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (أين الله؟)، وفيه:

---

(١) (٢٦).
(٢) سورة طه: (٥).
(٣) سورة الفرقان: (٥٩).
(٤) (٢٧).
(٥) (٢٨ ــ ٣٢).
(٦) (٣٢).
(٧) قلت : والتعبير بلفظ (الله) أولى ، مجانبة لإطلاق النصارى .
(٨) (٣٣).
(٩) سورة الأعراف: (٥٤).
(١٠) سورة الأنعام: (١٨).
(١١) سورة النحل: (٥٠).
(١٢) (٣٤).
(١٣) (٣٤).
(١٤) (٣٤،٣٥).
(١٥) سورة المجادلة: (٧).
(١٦) (٣٥).
(١٧) (٣٧).

تكذيب لقولهم، لأن الموجود في كل مكان لا يُسأل عنه بـ(أين)[٤] .

ثم أخذ في الاستطراد في سرد الأدلة على إثبات العلو، وكان مما استدل به حديث المطر، الذي حسر فيه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن جسدهِ ثوبَهُ، وقال: (حديث عهد بربه)[٥] .

وجه الدلالة: أنه لما كان المطر حديث عهد بربه، وهو قد جاء من العلو، دلّ على علو الله[٦] .

ثم أكملماابتدأ به، من أدلة إثبات علو الله ــ سبحانه ــ...

ويتوقف عند حديث: (إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة، أتاه ملك النفوس فعرج به الرب في راحته...الحديث)[٧] فيقول: (وإلى من يعرج الملك بالمني، والله بزعمكم الكاذب في رحم المرأة وجوفها مع المني)[٨] ، إشارة إلى قولهم: الله في كل مكان.

باب الاحتجاب

بعد ذلك انتقل إلى وجه آخر يثبت به العلو، وهو احتجاب الله ــ عزوجل ــ من الخلق فوق السماوات السبع[٩] ــ أي أنه يحتجب وهو في العلو ــ،فاستدل على احتجاب الله عن مخلوقاته بقوله تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب}[١٠]، وبحديث: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام،...حجابه النور)[١١]، ثم قال في نهاية الباب: (والآثار التي جاءت عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في نزول الرب ــ تبارك وتعالى ــ تدل على أن الله ــ عزوجل ــ فوق السماوات على عرشه، بائن من خلقه)[١٢] .

باب النزول

ويستطرد في إثبات علو الله؛ بأنه ــ سبحانه ــ ينزل، ولا ينزل إلا مَن كان في علو، ويستدل على ذلك من كتاب الله، يقول تعالى: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر}[١٣]، ثم ذكر حديث نزول الله[١٤] في الثلث الأخير من الليل[١٥] ، وساق أحاديثاً في نفس المعنى من طرق متعددة[١٦] .

باب النزول ليلة النصف من شعبان

وساق تحته حديث أبي بكر، أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل نفس إلا مشرك بالله ومشاحن)[١٧] .

باب النزول يوم عرفة

وذكر فيه حديث أم سلمة أنها قالت: (نِعْمَ اليوم يوم عرفة، ينزل فيه رب العزّة إلى السماء الدنيا)[١٨] .

انتقل بعد ذلك إلى إثبات نزول الله ــ تعالى وتقدّس ــ يوم القيامة.

باب نزول الربّ[١٩] ـ تبارك وتعالى ـ يوم القيامة للحساب

---

(١) (٣٧).
(٢) (٣٧، رقم ٦٠).
(٣) رواه مسلم: (٥٣٧)، وابن حبان في صحيحه: (١٦٥)، و أبو داود: (٩٣٠).
(٤) (٣٩).
(٥) رواه مسلم: (٨٩٨)، ورواه ابن حبان في صحيحه: (٦١٣٥)، ورواه أبو داود: (٥١٠٠).
(٦) (٤٤).
(٧) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: (٢٨/ ١١٩).
(٨) (٥٣).
(٩) (٦٠).
(١٠) سورة الشورى: (٥١).
(١١) رواه مسلم: (١٧٩)، ورواه ابن حبان في صحيحه: (٢٦٦)، ورواه ابن ماجه: (١٩٥).
(١٢) (٦٢).
(١٣) سورة البقرة: (٢١٠).
(١٤) (٦٣).
(١٥) رواه البخاري: (١٠٩٤)، ومسلم: (٧٥٨).
(١٦) (٦٨،٦٦).
(١٧) قال محقق الكتاب: (اسناده ضعيف، إلا أن له شواهد من حديث كل من: أبي ثعلبة، وعائشة، وأبي موسى الأشعري، وعبدالله بن عمرو، ومعاذ بن جبل،......ــ إلى أن قال ــ: فالحديث ثابت بهذه الطرق، والله أعلم) (٦٩-٧٠)، قلت : والذي عليه المحققون من أهل العلم ؛ أن ليلة النصف من شعبان لاتخص بطاعة دون غيرها ، وأن كل ماورد في فضلها ضعيف مردود، قال الحافظ ابن رجب ــ رحمه الله ــ في كتابه: (لطائف المعارف) ما نصه: (وليلة النصف من شعبان كان التابعون من أهل الشام؛ كخالد بن معدان، ومكحول، ولقمان بن عامر وغيرهم، يعظمونها ويجتهدون فيها في العبادة، وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها، وقد قيل: إنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية .... ــ إلى أن ذكر الخلاف الوارد في إحيائها على قولين ـ القول الثاني: أنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها لخاصة نفسه،... وهذا هو الأقرب إن شاء الله تعالى).(ص١٦١)، وإلى هذا الرأي مال سماحة العلاّمة ابن باز، وابن عثيمين (انظر موقع : صيد الفوائد على الشبكة العنكبوتية ، ملف شعبان).
(١٨) أخرجه الدارمي هنا بسنده إلى أم سلمة.
(١٩) انظر: صفحة(٤)، حاشية رقم(٢).

وساق في ذلك عدة أحاديث، منها: أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه....ــ إلى أن قال عن هذه الأمة ــ فيأتيهم الله ــ عزوجل ــ فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه)[١] .

باب نزول الله لأهل الجنة

ساق فيه الأدلة على ذلك[٢] ، ثم بيّن أن السلف على إثبات هذا النزول على مايليق بجلاله ــ سبحانه ــ، ورد قول من قال بأن معنى إتيانه في ظلل من الغمام، ومجيئه والملك صفاً صفاً كمعنى كذا وكذا، بأن هذا تكذيب للآية صراحاً[٣]، ثم طالبهم ــ رحمه الله ــ بالإتيان بالدليل الذي يثبت ما ذهبوا إليه، من قول الله أو رسوله أو أحد صحابته.

ويشتد في مهاجمتهم، بأنه حتى لو لم يوجد في إثبات النزول عن رسول الله ولا أصحابه شيء، لم يؤخذ بأقوالهم لأنهم غير مؤتمنين.

ورد عليهم قولهم: (من كان في كل مكان فكيف ينزل إلى مكان ؟!) بأنهم على وصفهم هذا؛ إنما يعبدون الهواء الداخل في المكان[٤]، ثم ردّ عليهم ما استدلوا به ــ من أن الله في كل مكان ــ من حديث: (أربعة أملاك التقوا: أحدهم جاء من المشرق، والآخر من المغرب، والثالث من السماء، والرابع من الأرض، فقالوا أربعتهم: جئنا من عند الله)[٥][٦] ، وأن الحديث ــ إن ثبت ــ فإن معناه: أن كل ملك بعثه الله من السماء، وكلاً نزلوا من عنده في مواطن مختلفة[٧] ، ثم انتقل إلى مسألة أخرى ينكرها الجهمية، وهي رؤية الله في الجنة، فقال:

باب الرؤية

واستدل عليها بعدة أدلة، منها قوله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة}[٨]، ومن السنة بحديث: بحديث: (أيّما والد جحد ولده احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين)[٩]،ثم قال: (ففي هذا الحديث دليل على أنه إذا احتجب عن بعضهم لم يحتجب من بعض، وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (سترون ربكم ــ عزوجل ــ كما ترون الشمس والقمر)[١٠]، فلم يدع لمتأول فيه مقالاً)[١١]، ثم ساق فيه الأدلة على إثبات الرؤية[١٢]، ثم قال بعد سياق الأدلة: (فهذه الأحاديث كلها وأكثر منها قد رويت في الرؤية على تصديقها والإيمان بها)[١٣] .

ثم ذكر نقاشاً دار بينه وبين أحد المعطّلة لهذه المسألة، حيث استدل المعطل بحديث أبي ذر عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما سئل: هل رأيت ربك؟ فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ: (نور أنّى أراه؟)[١٤].

فرد عليه: بأن هذا في الدنيا، وهو ما قالته عائشة ــ رضي الله عنها ــ: (من زعم أن محمداً رأى ربه ــ عزوجل ــ فقد أعظم على الله الفرية)[١٥]، ثم ردّ على من احتج بقوله تعالى: {لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني}[١٦] ، بأن ذلك إنما كان في الدنيا[١٧] .

---

(١) رواه البخاري: (٧٠٠٠)، ومسلم: (١٨٢).
(٢) (٧٦،٧٧،٧٨).
(٣) (٨٠).
(٤) (٨٣).
(٥) لم أجد ــ بعد البحث ــ لهذا الحديث أصلاً.
(٦) (٨٤).
(٧) (٨٥).
(٨) سورة القيامة: (٢٢ــ ٢٣).
(٩) رواه بنحوه: ابن حبان في صحيحه: (٤١٠٨)، وأبو داود: (٢٢٦٣)، وابن ماجه: (٢٧٤٣).
(١٠) أصله في البخاري: (٥٢٩)، مسلم: (٦٣٣).
(١١) (٨٨).
(١٢) (٨٨ــ ١٠٣).
(١٣) (١٠٣).
(١٤) مسلم: (١٧٨).
(١٥) (١٠٥).
(١٦) سورة الأعراف: (١٤٣).
(١٧) (١٠٦).

ثم بيّن ضلالهم في قولهم بالمعقولات في أمور الشرع، وإدخالها في نفي الصفات، ورد عليهم : بأن المعقول ليس شيئاً واحداً بين الناس كلهم فيقتصر عليه، ـ وأخيراً ـ رد على احتجاجهم بقول مجاهد(١): (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)(٢) ، قال: تنتظر ثواب ربها(٣) .

قال أبو سعيد: (نعم، تنتظر ثواب ربها، ولا ثواب أعظم من النظر إلى وجهه تبارك وتعالى)(٤) .

وبعد هذا التقرير المؤصل لرؤية الله ـ عزوجل ـ انتقل إلى صفة من صفات الله ينكرها الجهميّة، فقال:

باب ذكر علم الله

ورد قولهم بأن علم الله هو الله، وأن علم الله بمنزلة النظر والمشاهدة، لا يعلم بالشيء حتى يكون(٥) ، ثم ألزمهم على قولهم بنفي العلم نفي الإيمان باليوم الآخر.

ثم أخذ يسرد الأدلة الدالة على إثبات علم الله؛ كقوله تعالى: {وكان الله عليماً حكيماً} (٦) ، وقوله: {عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم} (٧) .

ومن ذلك إخبار الله عن أمورٍ وأعمالٍ قبل أن تحصل، كقوله تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيراً} (٨) .

وبيَّن ـ رحمه الله ـ أن نفيهم للعلم قد شاركهم فيه المعتزلة(٩) ، لأن مذهبهم لا يبقى إلا بنفي العلم(١٠) .

ويمضي في تقرير شيء من مسائل القدر؛ كالعلم والكتابة والخلق(١١) ، ثم يختم هذا الباب بحجة قوية، فيقول للخصم: (أرأيت الله يعلم أن الساعة آتية؟ فإن قال: لا، فقد فارق قوله وكفر بما أنزل الله على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإن قال: يعلم الله أن الساعة آتية، فقد أقرّ بكل العلم شاء أو أبى)(١٢) .

ثم انتقل إلى إثبات صفة الكلام لله ـ تبارك وتعالى ـ(١٣) .

باب الإيمان بكلام الله تبارك و تعالى

فأثبت أنه متكلم أولاً وآخراً، ويستدل على إثبات هذه الصفة بالتنزيل؛ كقوله تعالى: {وكلم الله موسى تكليماً} (١٤) ، وقوله تعالى: {إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي} (١٥) ، ومما عابه الله على العجل عدم الكلام لعجزه، مما يدل على أن الله متكلم لكماله(١٦) ، ثم ساق الأحاديث والآثار المروية في إثبات كلام الله ـ تعالى ـ(١٧) .

وبيَّن أن قولهم: (كلام الله مخلوق) بأنه كفر بالله، فالله لم ينسب شيئاً من الكلام كله إلى نفسه أنه كلامه غير القرآن، وما أنزل على رسله، والإلزام الحكيم على الشعر والنوح وغيرها، بأنها كلام الله(١٨) .

ورد عليهم ـ أيضاً ـ بأن الله قد ميّز بين من كلم من رسله في الدنيا وبين من لم يكلم، وميّز الرسول صلى الله عليه وسلم ـ أيضاً ـ بين من يكلمه الله يوم القيامة وبين من لا يكلمه(١٩) .

ويتصل الحديث حول كلام الله، بالحديث عن القرآن ونفي أن يكون مخلوقاً(١) .

---

(١) أبو الحجاج ، مجاهد بن جبر المكي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، شيخ القرّائين والمفسّرين، توفي سنة (١٠٢)، السير : (٤/٤٤٩-٤٥٧).
(٢) سورة القيامة: (٢٢ـ ٢٣).
(٣) (١٠٨).
(٤) (١٠٨).
(٥) (١١١).
(٦) سورة النساء: (١٧).
(٧) سورة الحشر: (٣٢).
(٨) سورة الإسراء: (٤).
(٩) المعتزلة: نشأت هذه الفرقة لما أظهر واصل بن عطاء بدعته، وزعم أن الفاسق في منزلة بين المنزلتين؛ وهما الكفر والإيمان، فطرده الحسن البصري من مجلسه، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة، وانضم إليه عمرو بن عبيد. من أهم أقوالهم : نفي الصفا ت الأزلية عن الله، نفي الرؤية، القول بأن كلام الله مخلوق، وأن الفاسق في منزلة بين المنزلتين. الفرق بين الفرق (٩٣ ـ ٩٨).
(١٠) (١١٨).
(١١) (١١٨ـ ١٣١).
(١٢) (١٣١).
(١٣) (١٣٢).
(١٤) سورة النساء: (٦٤).
(١٥) سورة الأعراف: (١٤٤).
(١٦) (١٣٣).
(١٧) (١٣٥ـ ١٥٣).
(١٨) (١٥٦).
(١٩) (١٥٧).

باب الاحتجاج للقرآن أنه غير مخلوق

وابتدأ الحديث بما أخبر الله به عن الوليد بن المغيرة، القائل عن القرآن ـ كما حكى الله عنه ـ: {إن هذا إلا قول البشر} (٢) ، وبيَّن أن قول الجهمية وقوله واحد لافرق بينهما(٣) .

وأخذ بسرد الأدلة الدالة على أن القرآن كلام الخالق ـ سبحانه ـ غير مخلوق(٤) .

ثم يقول في نهاية الباب ـ بعد سرد الأدلة ـ: (فهذا ينبئك أنه نفس كلام الله وأنه غير مخلوق، لأن الله ـ عزوجل ـ لم يخلق كلامًا إلا على لسان مخلوق، فلو كان القرآن مخلوقاً كما يزعم هؤلاء المعطلون كان إذاً من كلام المخلوقين، وكل هذه الروايات والحكايات والشواهد والدلائل قد جاءت وأكثر منها، في أنه غير مخلوق)(٥) ،ثم انتقل إلى قول ثالث في هذه المسألة، وهو التوقف في القول بخلق القرآن أو عدم خلقه(٦) .

باب الاحتجاج على الواقفة

وقد اتهمت الواقفة من لم يقل بقولها بالبدعة، فرد عليهم ـ رحمه الله ـ في هذا الباب، وبين أن ما كان وارداً في النصوص الشرعية فلا يتوقف فيه، وأن كل ماذكر من أدلة في الرد على من قال بخلق القرآن، فإنه دليل عليهم.

ثم يختم كتابه هذا بالنتيجة التي آل إليها من خلال ماذكر من عقيدتهم وأقوالهم، فقال:

باب الاحتجاج في إكفار الجهمية

وذكر تحته مناظرة بينه وبين رجل ببغداد، صرّح فيها ـ رحمه الله ـ بأن الجهمية ليسوا من أهل القبلة، وعلى هذا فالنهي الوارد عن تكفير أهل القبلة لا يدخلون فيه(٧) .

واستدل على كفرهم من القرآن، بقوله تعالى ـ مخبراً عن الوليد بن المغيرة أنه قال ـ: {إن هذا إلا قول البشر} وهو نفس قول الجهم: (إن هذا إلا مخلوق)، وقد حكم الله على الوليد وأشباهه بالكفر، وعلى هذا فنكفر الجهمية بقولهم، كما كفّر الله أئمة قريش بقولهم.

ومن الأثر، ماجاء عن ابن عباس، من أنه يرى قتل الزنادقة(٨) ـ دون الإحراق كما فعل علي ـ، قال أبو سعيد: (فهؤلاء الجهمية أفحش زندقة وأظهر كفراً)(٩) ـ يعني من أولئك الزنادقة الذين حرّقهم علي .

وأكد على تكفيرهم؛ وذلك لتكذيبهم نصّ الكتاب، في أن الله ذكر عن القرآن أنه كلامه، وقالت الجهمية: بل هو مخلوق، وأخيراً أنه كلم موسى تكليماً، وقال هؤلاء: لم يكلمه الله بنفسه وإنما سمع كلاماً خرج إليه من مخلوق(١٠) ،ثم إنهم قالوا أعظم من مقولة اليهود والنصارى في قولهم:

{يد الله مغلولة} (١١) ، وقد كفرهم الله بها، فهؤلاء من باب أولى، إذ إنهم لم يثبتوا لله يداً أصلاً.

ومما ذكر في تكفيرهم: أنهم لا يثبتون لله الصفات، ولا يدرون أين الله، إلى غير ذلك مما استدل به على كفرهم(١٢) .

ونقل كفرهم عن حمّاد بن زيد(١٣) (كفّر بشر المريسي)، يزيد بن هارون(١٤) وغيرهم.

ومن خلال هذه النتيجة التي وصل إليها في تكفيرهم بوّب الباب الأخير في :

قتل الزنادقة والجهمية، واستتابتهم من كفرهم

---

(١) (١٥٩).
(٢) سورة المدثر: (٢٥).
(٣) (١٥٩).
(٤) (١٦١).
(٥) (١٦٦).
(٦) (١٦٧).
(٧) (١٧١).
(٨) (١٧٢).
(٩) (١٧٣).
(١٠) (١٧٣).
(١١) سورة المائدة: (٦٤).
(١٢) (١٧١ـ ١٨٠).
(١٣) أبو إسماعيل الأزدي، الأزرق الضرير، أصله من سجستان، توفي سنة (١٧٩)، سير أعلام النبلاء : (٧/٤٥٦-٤٦٦).
(١٤) يزيد بن هارون بن زاذي، أبو خالد السلمي، توفي سنة (٢٠٦)، سير أعلام النبلاء : (٩/٣٥٨-٣٧١).



وساق تحت هذا الباب ماجاء عن علي ــ رضي الله عنه ــ أنه قتل الزنادقة وحرّقهم[١] ، وكذا ماذكرنا سابقاً عن ابن عباس، ثم قال ــ رحمه الله ــ: (فالجهمية عندنا زنادقة من أخبث الزنادقة، نرى أن يستتابوا من كفرهم، فإن أظهروا التوبة تركوا، وإن لم يظهروها تركوا، وإن شهدت عليهم بذلك شهود فأنكروا ولم يتوبوا، قتلوا)[٢]،وكذا مافعله خالد بن عبدالله القسري[٣] بالجعد عندما قتله يوم العيد لزندقته[٤] .

ثم نقل كلام الإمام مالك حول حديث: "من بدّل دينه فاقتلوه"[٥]: (أنه من خرج من الإسلام إلى غيره مثل الزنادقة وأشباهها فإن أولئك يقتلون ولا يستتابون، لأنه لا تعرف توبتهم، وأنهم قد كانوا يسرّون الكفر ويعلنون الإسلام، فلا أرى أن يستتاب هؤلاء ولا يقبل قولهم، وأما من خرج من الإسلام إلى غيره وأظهر ذلك، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل)[٦] .

ثم قال ـ أعني الدارمي ــ: (وأنا أقول كما قال الشافعي، أن تقبل علانيتهم إذا اتخذوها جُنّة لهم من القتل، ــ أسروا في أنفسهم ماأسروا ــ، فلا يقتّلوا، كما أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جُنّة فلم يؤمر بقتلهم، والزنديق عندنا شر من المنافق)[٧] .

وأخيراً قال ــ رحمه الله ــ: ولو لم يكن عندنا حجة في قتلهم وإكفارهم إلا قول حماد بن زيد، وابن المبارك ، ويزيد بن هارون ، وأحمد بن حنبل، لَجَبُنّا عن قتلهم وإكفارهم بقول هؤلاء، حتى نستبرىء ذلك عمّن هو أعلم منهم وأقدم، ولكنّا نكفّرهم بما تأولنا فيهم من كتاب الله ــ عزوجل ــ، وروينا فيهم من السنة، وبما حكينا عنهم من الكفر الواضح المشهور الذي يعقله أكثر العوام[٨] .

الخاتمة

ويتبين لنا من دراسة هذا الكتاب، أن مؤلّفه علم من أعلام السنة والجماعة، تميّز باتقاد ذكائه، ورده على المبتدعة، وأن هذا الكتاب عمدة لمن أراد دراسة الصفات والرد على النفاة، وأن الجهمية الغلاة ينفون الصفات والأسماء كلها عن الله، ومن ثم فهم كفار مارقون من الدين، ولايدخلون في حديث الافتراق الوارد في افتراق أمة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ على ثنتين وسبعين فرقة، بل هم كفار كما ذكر المؤلف.

هذا ما تيسر إعداده، والله أسأل أن ينفع به وأن يجعله في ميزان حسنات القارئ والكاتب،وأن يجزي شيخنا خير الجزاء، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع

١. اجتماع الجيوش الإسلامية/ ابن القيم/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ط١/ ١٤٠٤هـ.
٢. الأعلام/الزركلي/ العلم للملايين/ بيروت/ط١٢/1997
٣. الإمام عثمان بن سعيد ودفاعه عن العقيدة/محمد أبورحيم/الكتاب العربي/بيروت/ط٢/ ١٤١٨هـ.
٤. تفسير الطبري/ محمد بن جرير الطبري/ دار الفكر/ بيروت/ ١٤٠٥هـ.
٥. خلق أفعال العباد/ محمد بن إسماعيل البخاري/ ت: د. عبدالرحمن عميرة/ دار المعارف/ الرياض/ ١٣٩٨.
٦. الرد على الجهمية/ عثمان بن سعيد الدارمي/ ت: بدرالبدر/ الدار السلفية/ حولّي/ط١/١٤٠٥هـ.
٧. السنة/ عبد الله بن أحمد بن حنبل/ ت: محمد القحطاني/ دار ابن القيم/ الدمام/ ط١/ ١٤٠٦هـ.
٨. سنن ابن ماجه/ محمد بن يزيد القزويني/ ت: محمد فؤاد عبدالباقي/ دار الفكر/ بيروت.
٩. سنن أبي داود/ سليمان بن الأشعث/ ت: محمد يحيى الدين/ دار الفكر.
١٠. سير أعلام النبلاء/ محمد بن أحمد الذهبي/ ت: شعيب الأرناؤوط، محمد العرقسوسي/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ط٩/ ١٤١٣هـ.

(١) (١٨١).
(٢) (١٨١ـ ١٨٢).
(٣) أبو الهيثم خالد بن عبدالله بن يزيد الدمشقي، الأمير الكبير، توفي سنة (٢٢) ، سير أعلام النبلاء: (٥/٤٢٥-٤٣٢).
(٤) رواه البخاري في خلق أفعال العباد: (٢٩/١).
(٩) رواه البخاري (٢٨٥٤).
(٦) (١٨٤).
(٧) (١٨٥).
(٨) (١٨٦)، بتصرف يسير.

١١. شذرات الذهب في أخبار من ذهب/ عبدالحي العكري/ دار الكتب العلمية/ بيروت.
١٢. صحيح ابن حبان/ محمد بن حبان/ ت: شعيب الأرناؤوط/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ط٢/ ١٤١٤هـ.
١٣. صحيح البخاري/ محمد بن إسماعيل البخاري/ ت: مصطفى البنا/ دار ابن كثير/ بيروت/ ط٣/ ١٤٠٧هـ.
١٤. صحيح مسلم/ مسلم بن الحجاج/ ت: محمد فؤاد عبد الباقي/ دار إحياء التراث/ بيروت.
١٥. طبقات الحفّاظ/ جلال الدن السيوطي/ ت: علي عمر/ مكتبة الثقافة/مصر.
١٦. الفَرق بين الفِرق/ عبد القاهر البغدادي/ دار الآفاق الجديدة/ بيروت/ ط٢/ ١٩٧٧م.
١٧. الفهرست / محمد بن إسحاق بن النديم / دار المعرفة/ بيروت/ ١٣٩٨هـ.
١٨. لطائف المعارف/ ابن رجب الحنبلي/ضبط:إبراهيم رمضان و سعيد اللّحام/ دار الكتب العلمية/بيروت/١٤١٨هـ.
١٩. معجم البلدان/ ياقوت الحموي/ دار الفكر/ بيروت.
٢٠. الملل والنحل/ محمد بن عبدالكريم الشهرستاني/ ت: محمد كيلاني/ دار المعرفة/ بيروت/ ١٤٠٤هـ.

الفهرس